لنكن قوة تفعل لا مادة تنفعل

للدكتور محمد يوسف موسى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

وإذا كانت هذه بعض الآثار السيئة للتأثر بالغير إلى درجة التقليد الذليل ، وإذا كان التقليد لا بد منه ، مع ذلك ، فى كثير من الاحيان والاحوال ، فإن على الأب أوالمعلم أو ما كان من ذلك بسبيل واجبا من جهتين :

ا — أن يعنى بأن يكون كاملا فى خلقه حتى يكون قدوة طيبة لمن يتأثر به . ومن هنا نرى تشدد الزعماء والمصلحين فى أن يجعلوا أنفسهم بمنجاة من المآخذ أو المغامز ، وإلا كان عليهم وزرما يعملون ووزر من يتخذون منهم مثلا عليا .

ب — أن ينشىء فى أنفس من هم بسبيل اتباعه فى بعض ما يعمل روح الاستقلال . إنه ليس من الخير فى شىء أن يحاول المعلم تنشئة تلميذه على غراره ، أوالأب ابنه على شاكلته ، بل ذلك شر كله . يستطيع المربى أن يذكر لمن وكل إليه أمره رأيه فى هذه المسألة أو تلك ، ومذهبه فى أمور السياسة أو الاجتماع ، وطريقته فى الحياة بصفة عامة . ولكن على أن يعنى بتفهيمه بأن ذلك رأى أو مذهب له قد يكون صوابا كما قد يكون خطأ ؛ وإذاً من الضرورى وزنه بتفكيره الخاص ، ثم له بعد هذا أن يقبل منه ما يقبل وأن يرفض منه ما يرفض .

بهذين الأمرين يستطيع الأب ، والمعلم والمربى بصفة عامة ، ان يصل إلى تربية إنسان يقبل ما يقبل من الرأى عن بينة ، ويرفض ما يرفض من ذلك عن بينة ؛ ولا يأبى أن يقبل بعض ما لدى الآخرين من خير عن اقتناع لا عن تقليد . ولا يكون مادة تنفعل ، بل عقلا يفكر ونفسا لها شخصيتها وإرادتها الخاصة .

ثم ، عندما ينتهى المرء من التعليم ، ويبدأ التعرف للحياة العملية ، يجد نفسه قد صار عضوا فى بيئة جديدة ، وأصبح عليه أن يجتمع بأناس مختلفين هنا وهناك كلما اضطر بسبب عمله الانتقال من بلد إلى آخر . وهو مع هذا كله يستبدل دائماً زملاء بزملاء وأصدقاء بأصدقاء ورئيسا برئيس . هنا ، فى هذه الفترة وبين ما كانت تمنى به وتنشره ، وما ينشر الآن فى بعض الصحف لوجدنا تفاوتاً بيناً ليس مما يرضى عنه من يرى أن التفكير الأدبى والثقافى يجب أن يساير التقدم العام .

فى تاريخنا الأدبى لهذه الفترة — قبل أن تتجه بعض الصحف المصرية هذا الاتجاه الأخير ويشاركها فيه كثير من الكتاب أو ينساقون معها إليه — فى تاريخنا الأدبى هذا نجد عشرات الكتب لمؤلفين من الطبقة الأولى جمعت وكانت معيناً للنهضة الأدبية والثقافية فى مصر والشرق ، وهى فى الأصل بحوث نشرت فى الصحف وكانت فى وقتها أيضا من الدوافع المحركة لهذه النهضة . فكم نجد الآن بين ما ينشر فى بعض الصحف المصرية مما يمكن أن يجمع فى كتاب يقرؤه ويفيد منه مثقف ممتاز الثقافة أو متوسطها ... ؟

ومن الأنصاف أن أذكر بعض الصحف القليلة — كالرسالة والثقافة — بقيت على عهدها لم تنحرف ولم تساير وظلت محافظة على رعاية ما أنشئت له من العناية بالأدب الخالص على طريقتها الخاصة ، ومنهجها الذى لم تتحول عنه يوما .

إنى — كما ذكرت — أشعر بالحرج حين أكتب هذا الذى أكتبه ، فانى أحترم حق الزمالة ، ولكنى من ناحية أخرى أريد أن يحترم حق الفكر .

وناحية أخرى من نواحى الحرج أشعر بها فيما أكتب ، فانى إذا قلت إن صحيفة واحدة ، هى الأهرام ، ظلت — وأكاد أقول وحدها — لم تشارك فى الاتجاه الذى ذكرناه ، وبقيت كما كانت يجد فيها قارئها كثيرا مما يشغل الذهن بالتفكير والعقل بالتأمل والأفادة ، ومما يفيد الذوق بالترفيه والإحساس بالتهذيب والبهجة ، ولم تنحرف إلى ناحية التسلية و « قتل الوقت » وعلق القرائن ، إذا قلت إن «الأهرام» بقيت هكذا فقد يقال إنى أجامل وأمدح ، والله ما إلى هذا قصدت ، بل قصدت أن أشرت مثلا .

وماذا يضرنى بعد ذلك لو أنى مدحت من أعتقد أنى أنا صادق فى مدحه ... ؟

محمود السمرقاوى

وبسبب هذه العوامل ، تظهر مسألة الانفصال أو الاستقلال فى الفكر عام الظهور ، وتكون عاملا قويا فى زوال الشخصية أو تكوينها وتقويتها ، ومن ثم تكون عاملا قويا أيضا فى رجولة الإنسان وسعادته أو ميوعته وشقائه . والأمر للانسان ، من قبل ومن بعد ، فى حياته يصوغها كما يشاء ، وفى شخصيته يكونها كما يريد .

من الناس من لا يرى أن يعمل عقله ويجهد فكره فى المسائل ذوات الطابع الخلافى ، أى فى المسائل التى لا يبين فيها وجه الحق فهى لهذا قابلة للنقاش والأخذ والرد . إن هذا الصنف من الناس يرى حينئذ أن من الأيسر له أن ينحاز لهذا الرأى أو ذاك لأن فلانا الذى يقول به معروف بسعة العقل وجودة التفكير ، أو لأن فلانا له اسمه الذائع ومركزه المرموق . وهذا نموذج لكثير من الناس ، وهو نموذج ردىء كما ترى .

ومن الناس ، وهم القليل ، من يرى رأيه فى هذا الضرب من المسائل ، ولا يكتفى برأى غيره إلا إذا رضى به عقله واطمأن له قلبه . وهذا ، كما ترى ، مثال طيب ، لما فيه من أعمال العقل والتفكير ، وعدم الاكتفاء بأن يرى الناس له الرأى الذى يرون .

على أن هناك مسائل كثيرة يجب فيها الاتباع . لأنها تقوم على حقائق ثبت منذ طويل صحتها فلا تقبل من بعد جدلا ، وذلك مثل حقائق العلوم المختلفة . ولو راح امرؤ يبرهن بعقله على صحة كل حقيقة من هذه الحقائق ، لأنفق عبثا جهدا كبيراً من وقته ومقداراً ملحوظا من طاقته العقلية . وليس فى هذا شىء من العقل أو الحزم ، لأنه لا أحد يفكر فى إعادة إنشاء العلوم من جديد

إن الذى نعيبه من الاتباع أو الانفصال برأى الغير ، هو ما كان ناشئا عن كسل عقلى ورغبة فى أن يرى المرء بعقل غيره ، وما كان فى المسائل القابلة للنقاش وأوجه الرأى المختلفة . ومن ذلك مثلا مشكلة اختلاط الفتى والفتاة فى مرحلة التعليم العالى ، ومشكلة إعطاء المرأة حق الانتخاب ، ومشكلة حل أو حرمة التعامل مع البنوك للحاجة الماسة لذلك مع تعامل البنوك بالربا .

فى هذه المسائل ، وأمثالها كثير ، وهى فيما بينها تتفاضل أهمية وخطرا ، يكون القادر على تكوين رأى خاص فيها بتفكيره الخاص ، ثم لا يفعل ويكتفى بالتأثر برأى الغير وتقليده ، قد آثر الكسل العقلى ، ورضى أن يكون إمعة تابعا لهذا اليوم ولذلك غدا ، وما ذلك من الرجولة فى شىء .

وهناك بعد هذا كله ضرب آخر من الانفعال أسوء عاقبة وأشد أثرا ، نعنى به انفعال الأمة بأمة أخرى فى كثير من مقومات حياتها والهام من أمورها . وقد أفرد ابن خلدون هذه الناحية بفصل من مقدمته ، هذه المقدمة التى يجب أن نقرأ مرارا ومراراً بالتفات وفهم عميقين :

لقد ذكر مؤسس علم الاجتماع سببين لهذا الداء يرجع ثانيهما الأول ، وكلاهما مرده سوء ظن المغلوب بنفسه ، وحسن ظنه بالغالب فى كل أموره .

وهذا الذى يراه فيلسوف علم الاجتماع صحيح فى جملته وتفصيله ، صحيح اليوم كما كان صحيحا فى الماضى . على أنى أبادر فأقول بأن الغرب قد أخذ عنا الكثير فى العصور الوسطى من الفلسفة والعلوم ، فلا تثريب علينا أن نأخذ عن أمة أخرى بعض مظاهر حضارتها . ولكن العيب كل العيب أن تفنى شخصية الأمة ، أو تكاد ، فى أمة أخرى بما تقلدها فى أمور وأوضاع هامة خطيرة وبما تطرح من مقوماتها الأصلية فى سبيل ما تصطنع من ذلك عن الأمم الأخرى وكل ذلك لا لشىء إلا لأنها تحس ضعفها وقوة تلك الأمم فتعتقد فيهم كمال الجنس والتقاليد ، متناسية أن الله يداول فى الأيام بين الناس ، وأن من الممكن الأخذ عن الغير دون الفناء فيه .

إن أول مقوم للأمة من الأمم دينها ، وديننا وهو الإسلام هو كما تعرف عقيدة وشريعة ، وقد اشتمل على ما يمكن أن تحتاج إليه دولة من نظم وتشاريع . وقد نسى أولو الأمر فينا هذه الحقيقة البديهية فراحوا منذ زمن بعيد يلتمسون لدى الغرب كثيراً من نظمه وتشاريعه ؛ مع أن كثيرا من هذه النظم والتشريعات ثبت إفلاسه ، ومع أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما إذا كان الإسلام يحتوى خيراً منها أم لا .

إن هذا الصنيع ، أى الأخذ عن الغرب واتباعه فى كثير من الأمر لم يقف فى حدود ما هو ضرورى مثل الصناعات والأمور

الفنية ، ولكن تمدى إلى العادات والتقاليد التي ترجع في أسسها إلى الدين، كما تمدى إلى الشرائع والقانون كما أشرنا إليه من قبل.

حقا ، لقد فشا عندنا منذ زمن بعيد عادات وتقاليد ليست في شيء من الإسلام أو من تقاليدنا المستمدة من التاريخ، وهي آخذة في الانتشار والذيوع من طبقة إلى أخرى ، وكل هذا ليس من شأنه إلا أن يحط منا كأمة لها دينها وتاريخها وتقاليدها الخاصة بها. ولست أراني في حاجة إلى بيان هذه التقاليد الأجنبية والضارة التي استشرت فينا ، ويكفي الإشارة إلى الحفلات الراقصة ، والخمر تقدم في كثير من المناسبات في أوساط إسلامية معروفة .

وفي خارج مصر نجد الأمر يزيد شناعة وخطرا ، نجد التشبه بالغرب إلى حد الاندماج فيه يكاد يكون التقليد لو جيد لممثلينا هناك، وذلك أمر تحققناه بأنفسنا في تلك البلاد . حقا أن أكثر ممثلي مصر بأوربا لا يكاد يشعر الواحد منهم بأنه يمثل أمة إسلامية شرقية لها تقاليدها الطيبة التي يجب أن تحرص عليها. كما تحرص كل أمة أخرى على الطيب من تقاليدها ، والتي بدونها لا تكون لها شخصية أو تكون شخصيتها مذبذبة لا لون لها ، وليس بهذا نستوجب احترام الأمم الأخرى التي نعيش فيها ممثلين لمصر الشرقية الإسلامية !

هذا ، وإذا كان لا بد لكل حديث من نهاية ، ولكل بحث من غاية ، فإني أحب أن أجمل هذه الغاية في كلمات :

ا — لو لم يكن من غرائز الإنسان أو من طبيعته التأثر بالغير وتقليده ، لكان عسيرا كل العسر ، إن لم نقل لكان متعذرا في كثير من الحالات ، أن يصل الانسان وهو يجتاز مراحل حياته واحدة بعد أخرى إلى كثير من المعارف وإتقان كثير من الأعمال . ولولا هذه الغريزة الطبيعية ، أو الظاهرة الاجتماعية ، لعز على المربي أن يبلغ بطفله أو تلميذه إلى ما يريد له من كمال .

ب — ولكن ينبغي أن نحذر في الإفادة من هذه الغريزة ، فلا نسرف في الاشتغال بالغير والتأثر به إلى حد تقليده بلا تفكير أو اقتناع . ذلك إثمه أكبر من نفعه ، وحسبنا أنه ينتهي بمحو شخصية المقلد وصيرورته تابعا لغيره في تفكيره وطرائق حياته الاجتماعية على الأقل .

وليس لأحد منا أن يتعلل بما يذكره بعض الأخلاقيين من أن سعادة الانسان هي أن يحسن التكيف بما تكون عليه بيئته ، أي في القدرة على هذا التكيف وإحسانه في غير عنت أو مشقة . إنه لا ينبغي لنا هذا ، لأنه فرق كبير بين رعاية الوسط الاجتماعي فيما هو خير ، وبين الاشتغال بهذا الوسط خير وشره كما هو ملحوظ في حالات كثيرة هذه الأيام. إن هناك من الناس من يغير الواحد منهم رأيه في هذه المسألة أو تلك ، بعدد ما يغير من جلسائه مع غيره .

ج — وأخيرا ، من الواجب ، ونحن في نهضة وطنية واجتماعية ، ألا يكون الواحد منا مادة تنفعل بغيره وبما يكون من ذلك الغير من أحداث . بل يجب أن يكون في نفسه قوة تفعل ، قوة لها أثرها الطيب المحمود هنا وهناك .

إن عامة الغربيين يرون فينا ، معشر الشرقيين جماعات لم يعد لها كيان مستقل ولا شخصية خاصة ، ما دام الكل يرى في الغرب مثله الأعلى ، يقلده في كثير من أوضاع الاجتماع وطرائق الحياة . أما الخاصة من رجال الغرب ، أعني العلماء الذين لهم بصر يتجاوز ظواهر الأمور إلى حقائقها والباب منها ، فيرون أن هذا الاتباع من الشرق للغرب اتباع ظاهري ، ولكن للشرق وراء هذا روحه الخاصة به ، هذه الروح التي لا تلبث أن تظهر من جديد ناصعة قوية يفيد منها الشرق والغرب معا ، بعد أن صار هذا الأخير — وقد انهكت قواه الحضارة المادية بحاجة إلى بعث جديد يقوم على روح ومبادىء جديدة يلتمسها لدى الشرق والإسلام .

فللغربيين إذاً لمامة الغربيين خطأ ما يعتقدون من أن الشرق أضاع روحه وشخصيته في اتباع الغرب وتقليده، ولتحقق للخاصة منهم، وهم العلماء الذين لهم بصر نافذ وبصيرة ألمعية ، ما يلتمسونه لدينا من خصائص في الطابع والشخصية والروح ! خصائص لا قوام للشرق بدونها ، ولا غنى للغرب عن الإفادة منها .

بهذا، يعود من الممكن لنا أن نحتفظ بما لنا من كيان خاص ، وأن نساعد العالم على اجتياز الأزمة أو المحنة التي تطحنه طحنا هذه الأيام . وبهذا نكون قد ساهمنا في تقدم العالم وسعادته ، والله ولي التوفيق

محمد يوسف موسى